العلاقة بين فلسفة أبي حامد الغزالي وتصوفه

أ. د.منصور عفيف
جامعة قسنطينة

تمهيد:

الحمد لله خلق الإنسان وعلمه البيان. وخيره بين النجدين والسلام على مسك الختام وبدر التمام محمد بن عبد الله خاتم الرسل والأنبياء وعلى من اقتفى أثره أما بعد:

إن الفكرة الخاطئة التي كانت تقرر عدم أصالة الفكر الفلسفي في الإسلام قد انتهت تماما و لم يعد لها مجال في دراسة الفلسفة الإسلامية، إن هذه الفكرة الخاطئة التي كانت تقصر الفلسفة الإسلامية في نطاق الفلسفة الإسلامية تشمل المشائية الإسلامية ولأفلاطونية الإسلامية والأفلاطونية المحدثة والرواقية الإسلامية ثم على الكلام بفروعه المختلفة، وبفرقه المتعددة، ثم التصوف ثم الدراسات الكلامية والمنهجية في علم أصول الفقه.

و ظهرت رؤى جديدة ومناهج حديثة في دراسة الفلسفة الإسلامية وطبق بعض الباحثين على الفكر الإسلامي: الرؤية التاريخية المادية والبنيوية وغيرها من المناهج،إن النضرة أو الرؤية الموضوعية لا تنكر أبدا أن الفكر كثيرا ما ينقدح من باطن المجتمع،ولكن للفكر من حيث هو فكر موضوعيته ونسقه،وللفكر من حيث هو فكر أعماقه وحناياه وهو إما فردي أو اجتماعي وقد يكون نزوة حيوية للفرد أو للمَجتمع وقد يكون ثورة باطنية للفرد أو المجتمع، وقد يكون فرديا بحتا وقد ينفتح من باطنا لمجتمع وقد ينفتح من باطن الفرد، وربما هذا ما يتطبق على فيلسوفنا الذي نحن بصدد تقصى هذه المعاني في فلسفته وتصوفه ، والواقع أن الغزالي قد واجه فوضى مذهبية وضعفا في القدرة على الاستقلال في الحكم عليها واستخلاص الصواب من بينها وتوضيح ما هو الإسلام فيها من جانب آخر واجه تبعية مذهبية وخصومة طائفية وضياعا لمبادئ الإسلام فيها من جانب آخر بين تلك التبعية المذهبية وهذه الخصومة الطائفية ، أراد أن يكون مستقلا عن هذه الاتجاهات فيما يؤمن به،فتجرد عن هذه التبعية لأي منها واستقل بتفكيره ليضع القيمة الحقيقية في نظره لكل منها.

ومما لا شك فيه أن الغزالي كان شخصية إيمانية عظيمة ولكن لا يجوز لهذا السبب أن ينكر المرء انه كان طيلة حياته باحثا عن الحقيقة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

فما منهجه في بحثه عن تلك الحقيقة؟ وما هو الأثر الذي ترتب عن تجربته الصوفية؟ وهل كان له انعكاس على فلسفته وفكره؟

من اجل الإجابة عن هذه التساؤلات أردت أن أقوم بهذا العمل المتواضع للتعرف أكثر على جوانب العظمة في هذه الشخصية الإسلامية الفذة، وقد استخدمت في ذلك المنهج التحليلي لتحليل آراءه ومواقفه، وكانت الخطة التي سرت عليها كالتالي:

المبحث الأول: منهج الغزالي في البحث عن ا لحقيقة.

المطلب الأول: مكانة العقل في فلسفة الغزالي.

منهج الغزالي أن العقل لا يدرك بالعلوم الأولية أو الأزلية ولا بالعلوم المكتسبة حقائق اليمان وهي أوامر الله ونواهيه ووحدانية والبعث والثواب واليوم الآخر وحشر الأجسام، بل يدركها بالعقل وأنوار العلوم الشرعية التي مصدرها القرآن، فالقرآن من العقل بمكانة نور الشمس من العين فكما أن العين لا يمكنها إدراك الأشياء إلا بنور الشمس كذلك لا يمكن إدراك الحقائق الإلهية إلا بنور القرآن والعقل معا.

وهذا هو المنهج الذي يعتمد عليه الغزالي في طلب حقائق الإيمان واليك ما يقوله في إحياء علوم الدين"إن العين تفارق الجبهة في صفات وهيئات بها استعدت للرؤية فنسبة هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة نور الشمس إلى العين، ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة في انسياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر فهكذا ينبغي أن تفهم هذه الغريزة".

إن الغزالي لايكتفي بادراك حقائق الإيمان عن طريق العقل بل يريد أن يعيشها على النحو الذي يريد إلا عن طريق الذوق الذي لا يتحقق إلى بترويض العقل بالشرع، على أن الغزالي قبل أن يعرف الأيمان إدراكا وجدانيا وهي وجود الله ووحدانيته وصدق الرسول واليوم الأخر لا يتم إلا عن طريق الذوق الذي منشأه رياضة النفس وفقا لأوامر الشرع كان عليه ان يمر بطور المجاهدة قبل أن يصل إلى طور المشاهدة و بالتالي كان عليه أن يختار مرحلة الشك فيعاني منها ما عاناه من تمزق وضياع وأن يعيش في متناقضات العقل لكي يستعيد ثقته به و إيمانه بقدرته على إدراك الحقائق [1].

المطلب الثاني: الشك المنهجي عند الغزالي و رفضه التقليد

أولا:الشك المنهجي:

أول ما يسترعي انتباهنا في حياة الغزالي تعطشه إلى إدراك الحقيقة فهو يشبه اضطراب الفرق و اختلاف المذاهب في زمانه ببحر عميق غرق فيه الأكثرون وإذا عزم على اقتحام هذا البحر العميق والتوغل في ظلماته فمرد ذلك إلى ميل طبيعي في نفسه ،فتحرك باطنه إلى طلب حقيقة الفطرة الأصيلة فقال في نفسه:"إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه العلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ولا يتبع القلب لتقدير ذلك بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذك شكا وإنكارا ؛فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة أكبر بدليل أني أقلب العصا ثعبانا وقلبها وشاهدت ذلك منه لم أشك بسببه في معرفتي و لم يحصل لي إلا التعجب من كيفية قدرته عليه فأما الشك فيما علمت فلا.

ويستنتج الغزلي أن كل علم لا يتقينه هذا النوع من اليقين فهو علم لاثقة به ولا أمان معه وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني فمقياس اليقين إذا هو الأمان ومعنى الأمان الثقة ومعيار الثقة انكشاف المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب.

ثم نظر الغزالي في علومه فوجدها خالية من علم موصوف بهذه الصفة لأن العلم إما أن يكون بالمحسوسات وإما أن يكون بالعقليات فالعلم بالمحسوسات لا أمان فيه لأنك تنظر إلى الكوكب فتراه صغيرا في مقدار الدينار؛ ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار وكذلك العلم بالضروريات فإنه لا يسلم من تطرق الشك إليه لأننا نستطيع أن نتصور وراء حاكم العقل حاكما آخر؛إذا تجلى كذب العقل في حكمه ،فكيف نثق بالعقليات ،وبم نأتمن أن يكون كل ما تعتقد عقولنا من جنس ما أطلعتنا عليه حواسنا فالعقل يكذب بالإحساس و الإحساس يكذب العقل،كأن هناك مأساة تنتصر فيها العقليات على المحسوسات تارة ، المحسوسات على العقليات أخرى قال الغزالي "فقالت المحسوسات ،بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد [illegible]

حلكم العقل لكنت تستمر على تصديقي فلعل وراء أدراك العقل حاكما آخر إذا تجلّى كذب العقل في حكمه كما تجلّى حاكم العقل فكذّب الحس في حكمه".

فلما خطرت للغزالي هذه الخواطر حاول أن يجد لشكه علاجا فلم يتيسر له ذلك فأعضل هذا الدّاء ودام قريبا من شهرين وهو فيهما على مذهب السفسطة حتى شفاه الله من ذلك المرض بنور قذفه الله في صدره قال "وعادت النفس إلى الصحة و الاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة مقبولا بها على أمن ويقين ولم يكن ذلك ينظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله في الصدور وذلك النور هو مفتاح أكثر العلوم فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمه الله الواسعة فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف وذلك النور ينبس من الجود الإلهي في بعض الأحايين ويجب الترصد"

إن مسألة الكشف من أهم المسائل التي وردت في المنقذ من الضلال غير أنها لم تكن سوى وسيلة تعوض العقل في عجزه في حل جميع المعضلات لان العقل كما بينا ليس مصدر جميع الحقائق و إذا استغنى عن الشرع لم يتوصل إلى أذراك الحق بنفسه.[2]

ثانيا : رفضه التقليد

ازدحم عصر الغزالي بمشكلات دينية وكانت هناك مدارس كثيرة وطوائف دينية متعددة ومن بين الاتجاهات الأربع الرئيسية كانت هناك ثلاث اتجاهات ذات طابع ديني وهي اتجاهات المتكلمين والباطنية والصوفية وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك طوائف الفلاسفة وقد رأينا أن موقف هذه الطوائف من أمور العقيدة وكان يتمثل في أن هذه الأمور إما أن تؤخذ مستقلة استقلالا تاما عن العقل كما في اتجاه الباطنية وإما أن تكون في الظاهر مبنية على براهين مبنية على العقل كما في اتجاه المتكلمين في حين أن اتجاه بعض المتصوفة واتجاه الفلاسفة كان يميل إلى رفع التكاليف الدينية وقد كان الفكر عند كل هذه الطوائف بوجه عام قائما على التقليد أي التسليم إما بنظرية الباطنية في الإمام المعصوم أو بتعاليم العقيدة السائدة أو بتعاليم الفلسفة اليونانية من جانب الفلاسفة المسلمين وقد عرف الغزالي أن هذا الفكر القائم على التقليد يمثل المشكلة الكبرى لعصره ولهذا رأى من واجبه مكافحة كل أشكال التقليد ولم يجد في ذلك عونا من جانب الفلاسفة وذلك لأنهم كانوا واقعين تحت سيطرة التقليد فقد أخذوا الفلسفة اليونانية دون فحص ناقد وقلدوها ببساطة واقعين تحت تأثير أسماء لامعة مثل سقراط و أفلاطون و أرسطو.

يرى الغزالي أن الشك في جميع المعارف التي يتلقاها المرء عن طريق التقليد يعد أمرا ضروريا في أثناء التطور العقلي وذلك لأن الشك وحده هو الذي يجعل الوصول إلى الحقيقة أمرا ممكنا يقول الشكوك هي الموصلة إلى الحق فمن لم يشك لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال "[3].

المبحث الثاني: تصوف الغزالي وأثره على فلسفته

المطلب الأول :مقومات التصوف عند الغزالي

تصوف الغزالي تصوف سني متعبد آمن بالله و بالنبوة و باليوم الآخر وكف نفسه عن الهوى و أعرض عن المال و الجاه وهرب من الشواغل والعلائق وأقبل بكل همته على الله تعالى لذلك كان التصوف عنده مبني على علم وعمل أما العلم فقد حصله من مطالعة كتب المتصوفين وأما العمل فقد حصله بالذوق و الحال وتبدل الصفات وهو يقول في ذلك "وكان العلم أيسر عليّ من العمل وكم من الفرق بين أن تعلم حد الصحة وحد الشبع و أسبابهما و شروطهما وبين أن تعرف حد السكر و إنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معاذن الفكر وبين أن تكون سكران فكذالك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه و أسبابه وبين أن تكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا"

وربما كان تصوف الغزالي أقل حرارة من تصوف كبار المتصوفين الذين فارقوا الأخلاق الطبيعية واخمدوا الصفات البشرية وجانبوا الدعاوى النفسانية ،لكن ما نجده في كتاب الإحياء من وصف لحالات التوبة والورع و الزهد و الفقر والتوكل والرضا والمحبة يدل على أن الغزالي ذاق حقيقة التصوف وتميز عن غيره بالجمع بين علم المعاملة وعلم المكاشفة لذلك نجده ينتقد الجهّال الذين تناسوا العقيدة الدينية واغتروا بالسطح و الترهات و انتهى بهم طول التفكر إلى إدعاء الكرامات والقول بوحدة الوجود[4].

أولا: الإلهام

تختلف المعرفة الإلهامية بطبيعة الحال عن غيرها من أنواع المعارف الأخرى من حيث أن هذه تمثل عملا كسبيا يحصل عليه المرء عن طريق الدرس و التعلم و الإلهام كما يعرفه الغزالي "هو تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنسانية على قدر صفائها و قبولها و قوة استعدادها " والعلم الديني هو العلم الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري و إنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف .

و يقول"إن العلم الذي يحصل لا بطريق الاكتساب و حيلة الدليل يسمّى إلهاما و الذي يحصل بالاستدلال يسمّى اعتبارا واستبصارا" والرياضة الصوفية تؤدي الى هذا العلم المباشر أو الألهام ولا بد من التجربة المباشرة أو ما يسمّى بالذوق في المعرفة الصوفية فإذا لم توفر للمرء هذه التجربة الخاصة لجأ إلى إنكار إمكان المعرفة الالهامية و يعبر الغزالي عن ذلك بقوله" وقد جرت العادة بأن الجاهل بالشيء ينكر ذلك الشيء و ذاق المدعي ما ذاق شراب الحقيقة وما أطلع على العلم اللدني فكيف يقر بذلك ؟ ولا أرض بإقراره تقليدا أو تخمين ما لم يعرف "

ولم يكن الغزالي من هذا الصنف الرافض للتجربة الصوفية لجهله بها أو المعترف بها تقليدا أو تخمينا ولكنه اتجه بكل هميه لإلى دراسة التعاليم الصوفية دراسة متعمقة وفي عزلة تامة ،مارس الغزالي التصوف عمليا سنين عديدة بعد أن تبين له أن المعرفة النظرية للتعاليم الصوفية غير كافية و أنه لا بد أن ينضم العمل إلى هذا العلم ، هذا المل الذي هو عبارة عن تحول أخلاقي أساسي وتجربة مباشرة ولم يشأ الغزالي أن يصرح بشيء عن مضمون تجاربه الصوفية ،وكل ما أخبر به هو أن ممارسته العملية للتصوف قادته إلى معرفة كمال الطريق الصوفي وقد أشار الغزالي إلى ان هناك شرطا ضروريا لسلوك الطريق الصوفي وهو تطهير القلب نطهيرا تاما من كل ما سوى الله وقد تحقق ذلك للغزالي الذي توصل على هذه المعرفة بطريقة فلسفية قبل تحوله إلى التصوف ،ويشير الغزالي في كتابيه إحياء علوم الدين وميزان العمل إلى أن أهل التصوف يميلون لإلى العلوم الالهامية ولا يميلون إلى العلوم التعليمية ومن أجل ذلك لم يحرصوا على تحصيل العلوم ودراستها و تحصيل ما صنفه المصنفون في البحث عن حقائق الأمور وقالوا: الطريق تقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكل الهمّة على الله تعالى ومهما حصل ذلك فاضت عليه الرحمة وانكشف له سر الملكوت وظهرت له الحقائق وليس عليه إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار النية مع الإرادة الصادقة و التعطش التام والترصد بالانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة.[5]

ويرى الغزالي أن طريق الإلهام هو الاستغراق في التأمل الباطني وفوق هذا التأمل الباطني درجة من المعرفة يدرك معها المرء كيف حصل لم ذلك الإلهام ومن أين حصل وتسمّى هذه المعرفة وحيا وهي ما يختص به الأنبياء أما الإلهام فيختص به الأولياء وأما العلم الحاصل بطريق الاعتبار و الاستبصار والاستدلال فيختص به العلماء ، ومن أجمل ما في كتاب الإحياء

من تشبيهات تشبيه القلب بحوض محفور في الأرض فإما أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه وإما أن يحفر أسفل الحوض و يرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء-وتكون الحواس الخمس – الصافي فيتفجر من أسفل الحوض.

قال الغزالي "والقلب مثل الحوض و العلم مثل الماء وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس و الاعتبار و المشاهدات حتّى يمتلأ علما و يمكن أن سد هذه الأنهار بالخلوة و العزلة وغض البصر و يعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتّى تتفجر ينابيع العلم من داخله فأعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب و لا يسمح بذكره في علم المعاملة"

وهذا النص وحده كاف للدلالة على أن المعرفة تحصل في النفس بطريقتين طريق الحواس و الاعتبار و المشاهدة وهو طريق التجربة الخارجية و الثاني طريق القلب وتطهيره ورفع الحجب عنه وهو طريق التجربة –الخارجية- الداخلية وكلا الطريقين يؤديان إلى نتيجة واحدة لأن صورة العالم الخارجي محفوظة في النفس فإما أن تتوجه النفس إلى الخارج فتتأدى إلى المعرفة بطريق الحواس وإما أن تتوجه إلى ذاتها وتدرك صورة العالم المحفوظة في القلب فتنفجر منه المعرفة و المعرفة التي تتفجر من القلب أصفى و أدوم ،وقد عنى الغزالي في كتاب عجائب القلب و كتاب السماع من الإحياء بوصف العلم الحاصل في القلب بطريق الكشف والإلهام فقال "فإذا تولى الله أمر القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة و تلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية فليس على العبد الاستعداد بالتصفية المجردة و إحضار الهمة مع الإرادة الصادقة و التعطش التام و الترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله من الرحمة فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر و فاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد في الدنيا والتبرؤ من علائقها و تفريغ القلب من شواغلها و الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى" ومعنى ذلك أن العلم المبني على الإلهام إنما يحصل في النفس بطريق الزهد و تطهير القلب و التجافي عن دار الغرور لأن المعرفة قسمان معرفة حسية و معرفة صوفية الأولى تحصل بطريق الإحساس والثانية تحصل بطريق التأمل الباطني.

وللقلب بابان : باب مفتوح على عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة وباب مفتوح على الحواس الخمسة المتمسكة بعالم الملك والشهادة ويكفي لإدراك عالم

الملكوت أن يطهر الإنسان نفسه من العلائق الحسية و أن يتحرر من الشواغل الجسمانية وأن يفتح صدره للنور وأن يتعرض للنفحات الإلهية لذلك كانت تصفية القلب بالعزلة و الخلوة و الزهد في الدنيا وسيلة لإزالة الخبث عنها حتّى تصبح مرآة صقلية تنطبع فيها الصور انطباعا مباشرا بطريق الوحي والإلهام ولذلك كانت أولى وظائف المتعلم تقديم طهارة النفس و تجريدها من رذائل الأخلاق فكما لا تصح الصلاة إلا بتطهير الجوارح من الأحداث و الأخباث كذلك لا تصح عمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته من خبائث الأخلاق و أنجاس الأوصاف.[6]

ثانيا :دور العقل في المعرفة الإلهامية

يشير الغزالي أن للعقل دورا هاما يتمثل في وظيفتين أساسيين

الوظيفة الأولى: هي أنه عن طريق العقل يمكن استيفاء الشروط الأساسية الثلاثة للحصول على المعرفة الصوفية وفي ذلك يقول "اعلم أن العلم أللدني يكون بعد التسوية "ونفس وما سواها " وهذا الرجوع يكون بثلاثة أوجه أحدها تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر منها والثاني الرياضة الصادقة و الثالث التفكر فلأن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ثم تتفكر في معلوماتها بشروط التفكر ينفتح عليها باب الغيب ،فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوي الألباب و تنفتح روزنه من عالم الغيب في قلبه فيصير عالما كاملا عاقلا ملهما مؤيدا" و يتضح من هذا الرأي أن الغزالي يميل إلى رأي النظّار وذوي الاعتبار في التأكيد على أهمية تحصيل العلوم وقد كان هو نفسه مثالا لذلك، ولا تقتصر مهمة العقل على استيفاء هذه الشروط الثلاثة فقط و إنما بعد ذلك تبدأ الوظيفة الثالثة.

الوظيفة الثانية : تتمثل في الحكم النقدي على التجارب الصوفية و تقويمها تقويما صحيحا ،وهذه الوظيفة لها أهمية بالغة وذلك لأن حالات السكر عند المتصوفة تقود بسهولة إلى أقوال ذاتية قاصرة وهذا ما يسجله الغزالي في قوله وكلام الصوفية يكون أبدا قاصرا،فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط"

ونظرا إلى أنهم يشتغلون بأحوالهم الراهنة فقط فإنهم لا يستطيعون أن يوقفوا بين أقوالهم المختلفة وفي ذلك يقول أيضا "هؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم كما أن حالة الفناء في الله تقود بعض المتصوفة إلى التصريح بأقوال خاطئة عن نوع هذا الفناء وذلك لأن عقلهم في

حالات السكر الصوفي يكون معزولا وعندما يخفف عنهم هذا السكر يرجعون مرّة أخرى إلى سلطان العقل يعرفون عندئذ خطأهم "فلما خفّ عنهم سكرهم وردّوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد، بل شبه الاتحاد"

وقد قام الغزالي بتفنيد الادعاء لأن التجارب الصوفية أمور لا عقلية و أنها لذلك خارجة عن نطاق حكم العقل و بيّن في هذا الصدد أنّه لا يجوز إطلاقا أن يظهر في طور الولاية الذي يصل إليه المرء عن طريق التصوف أمر من الأمور يجد العقل نفسه مضطر للحكم عليه بالاستحالة .

وفي ذلك يقول :فإن قلت كلمات التصوف تنبئ عن مشاهدات انفتحت لهم في طور الولاية ،والعقل يقصر عن درك الولاية .وما ذكرتموه تصرف ببضاعة العقل فاعلم أنه لا يجوز أن يظهر في طور الولاية ما يقضي العقل باستحالته ويضيف في ذلك قوله"إن من الممكن أن يكشف للولي عن شيء لا يستطيع إدراكه ولكن ليس من الممكن إطلاقا أن يكشف له عن شيء يحكم عليه العقل بالاستحالة وبذلك يفرق الغزالي فيما يتعلق بوظيفة العقل بالنسبة للمعرفة الصوفية بين عدم استطاعة الإدراك وبين ما يعده العقل غير ممكن ويوضح ذلك فيقول: "نعم يجوز أن يظهر فيما يقصر العقل عنه ،بمعنى أنه لا يدركه بمجرد العقل مثاله :أنه يجوز أن يكاشف الولي بأن فلانا سيموت غدا ولا يدرك ببضاعة العقل بل يقصر العقل عنه.

ومن ذلك يتضح أن المعرفة الإلهامية لا تخرج عن نطاق العقل [7].

المطلب الثاني :التجربة الصوفية وعلاقتها بالفلسفة عند الغزالي

أولا :التجربة الصوفية :

أول المخطط البياني لهذه التجربة يقوم على تحديد الآداب التي يتحلّى بها الصوفي أثناء تلقيه شواهد الحق (القرب إلى الله) بالرياضة والمجاهدة والصفاء الروحي ،لأنّ تطبيق مثل هذه الآداب يؤدي به إلى فهم عميق للدين وفي الأخير معرفة الله.

ولعل إيراد ما كتبه الغزالي للصوفي من آداب يعطينا الفكرة الأساسية في القرب (معرفة الله) التي نحن بصددها أولا فالغزالي يقول:" آداب الصوفي قلة الإشارة ،وترك السطح في العبارة والتمسك بعلم الشريعة ودوام الكد واستعمال الجد و الاستيحاش من الناس وترك الشهوة وإظهار التحمّل ،واستشعار التوكل واختيار الفقر ،ودوام الذكر، وكتمان المحبة، حسن العشرة في الصحبة والغض عن المردان وترك مؤاخاة النسوان ودوام درس القرآن".

هذا الأدب الرفيع لا يأتي للصوفي إلا بعد مجاهدة عنيفة في مرحلتين :

-العبادات ظاهرة وباطنه – المجاهدة ومحاسبة النفس.

و يفسر الغزالي المجاهدة بأنها تقوم على أساس معرفة النفس كوسيلة مؤدية إلى معرفة الله فبعد أن يتكشف للمرء أنّ زمانه يقصره على الانشغال بأمور الدنيا،لا بد له من التزام العزلة و التفرد وذكر الله هنا يستطيع أن يهتدي لمثل أعلى في هذه المجاهدة ،وبحقيقة لا مفر منها إنّ من عرف نفسه فقد عرف ربّه"

فأولى درجات هذه المعرفة الزهد الحقيقي الذي هو غير مقدور للعبد إلا بعد أن ينغمس في زهد بسيط سابق ،ليظهر الباعث لعزيمة الصوفي في عقيدته ،وهذا الرابط هو درجة من الصفاء ،تتحقق ببدء ترك المرء إرادته بقلبه فالقلب هو باطن النفس ومكان الإرادة وإذ تنتفي الإرادة في القلب يستطيع القلب آنئذ أن يتفرغ لأجل تحقيق الفناء الكامل في الوحدانية بعد أن يكون القلب موضع نظر رب العلمين مع ضبط أصول الاحتفاظ بسنن الله في كونه لتاتي الدرجة العليا درجة القرب على الله بالاستغراق والفناء.

وللوصول إلى هذه الذروة من الشعور يجب أن يمر الصوفي في ثلاث مراحل: الصبر، المجاهدة (انتزاع النفس مما يحيط بها) ، التجريد.

فإذا كان الصبر هو جوهر عمل الزاهد و المجاهدة تقوم على أساس أن تنتزع النفس كل ما يحيط بها من أدران بما لا يقبل الشك ، إلى حد التوكل والتفويض وحيث يطرح الصوفي كل الشهوات الباطنية فلا سبيل من بعد لإدراك العطاء الإلهي الذي لا ينتهي إلا بعبادة باطنية مستديمة هي الكفيلة بإيصال المرء إلى المعرفة وعند ظهور هذه المعرفة تتأصل الغاية .

فمنهج العارف هنا خلال توكله وتفويضه يأتي بالذكر المصاحب للسهر والخلوة والجوع و الأخير ضرب من ضروب الرياضة الروحية في عنفوان انتزاع المجاهدة وهو مذهب كل العارفين وهذا نفسه الذي يؤدي بالعارف إلى الزهد الروحي بعد الزهد الجسماني فهذه مرحلة يتحقق فيها الحذر من السقوط تارة أخرى فيما يتعلق بالحياة وهي الصورة المجسمة للمادة فيضع مكان الرغبة التي لا مفر لغير العارفين منها ن التقوى التي لا بد للعارفين منها وهذه في الأصل تنزيه القلب .

وتأتي درجة أخيرة من الشموخ بالمعرفة التي لا يصل إليها العارف إلا بدرجتين أخريين في استقصائه للحق في مكاشفاته .أولها الخشية و الهيبة و هما وسيلتان يلجأ إليهما

العارف لإدراك أسرار المخلوقات التي يتجلّى فيها خلق الله ثم تأتي الطاعة والعبادة بعد أن تكشف أسرار الخلق للعارف فيمضي في تأمّل باطني لإدراك نفسه كل ذلك قد يتم و المرء مليئ بالذنوب ، ذنوب قد تكون مستورة باطنية في قرار النفس .ومن هنا تتحدد هذه الدرجة يتنزّه القلب من كل تلك الذنوب الباطنية وهذه عملية صعبة المراس لا يأتيها إلّا العارف المستنير لأن القلب هنا يصير من الصفاء بحيث يشبه المرآة ،فكما يستشعر الرائي نفسه بواسطة المرآة أنّ تجلّيا يحدث لعكس صفاته فيها.ففي القلب بعد تخلّصه من الذنوب الباطنية يقع تجلّي الصفات حتّى يصبح القلب وقد انطبعت فيه صور جميع الكائنات .بهذا التجلّي تتحقق الانقلابية عنيفة في بواطن العارف ذلك لأنّ الإيمان يصل ذروته فإذا بالعارف يصبح سمع الله وبصره ولسانه ويده ورجاه،ليتأكّد معنى القرب إلى الله ،فالله هنا يزرع حبا ألاهيا في باطن العارف لينطلق في حبّه من نقطة تجلّي الصفات من الكائنات في قلبه ليرتفع إلى العلاء في حبده الشمولي فيلقي بعد أن سرت حقيقة الحب الإلهي في باطنه التجلّي الذي يبلغ أقصاه في تكشف ضروب ألم هي في ذاتها ضروب من اللذة ،فيصعّد اتحادهما عذابا أزليا له ذوق رفيع روحي مؤداه أصل جوهريهما (اللذة و الألم) لأنهما يصدران عن المحبوب .

و للثبات على هذه الصفة الرائعة لا يمكن تغافل الإخلاص ذلك لأنّ العارف لا يصل إلى درجة القرب على الله بعد تصعيده لاتحاد اللذة بالألم إلا بالثبات على عبادته الباطنية المستديمة كما يظل متمسكا بجوهر رؤياه لنفسه وهو يلج دروبا مليئة بأنواع المغريات كزيف الظواهر والرياء فهو بهذا الاصطراع مع التجلّي في الصفات ومن ثم الأفعال يستطيع أن يبقى استمرارية تجلّي الحق باستنارته الدائمة بنور الله في القلب الذي يأطر المعرفة كلّها ،وتظهر الصلة بين العارف وبين الحق على أوجها إذ يقدر من بعد أن يهتدي بنور قلبه على علوم و أسرار وحكم لا يهتدي إلى بعضها غيره،فالإخلاص هو سر الله الذي استودعه قلب من أحب من عباده العارفين.

ومن المهم أن نختم حديثنا عن نظرية القرب عند الغزالي ينص له فهو يقول:"أول الحجب بين العبد وربه نفسه فإنّه أمر رباني عظيم وهو نور من أنوار الله أعني سر القلب التي تتجلّى فيه حقيقة الحق ،حتّى ليشح بجمله العلم كله ،ويحيط به صور الكل فعنده يشرق نوره إشراقا عظيما ، إذا يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في أول الأمر محجوب لمشكاة

هي الساترة له فإذا تجلّى نوره،وانكشف جمال القلب ،بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب ألى القلب فرأى من جماله الفائق ما يدهشه فربما صرّح وقال "أنا الحق".

فخلاصة التجربة الصوفية التي ينتظر الغزالي من الصوفي العارف المؤمن في أوج إيمانه أن يأتيها تعتمد أربعة خطوط.

العلم . العمل. الإخلاص. الخوف.

فالنفس بقدر ما تحتاج للعلم والعمل مع ضبط توازنها بالإخلاص لا بد لها من إصلاح مستمر بالتخويف فعندئذ تكتمل صورة الذروة بذكر الله كما يتحقق العلم أللدني في القلب بعد إطراح أدرانه المادية وشوائبه الحياتية لتأتي مرحلة الصفاء في عبادة باطنية يتم فيها التجلّي بالذوبان من خلال حبل المعرفة الواصل بين العارف والله وتلك هي الغاية العظمى.[8]

ثانيا :الفلسفة والتصوف في فكر الغزالي :

هناك اعتبارات هامّة ينبغي على المرء مراعاتها إذا أراد أن يفهم تصوف الغزالي فهما سليما وتتمثل هذه الاعتبارات في النقاط التالية :

– ينبغي أن يأخذه تطوره العقلي في الاعتبار و أن يراعي أنه قد تعمق تعمقا فائقا في كل علوم عصره كما سبق بيان ذلك.

-أنه كان باستمرار عالما منتجا ولم يتوقف عن العطاء العلمي بعد أخذه بمنهج الحياة الصوفية .

– أنه كان صاحب عقلية فلسفية لم يتخلّ عنها في يوم من الأيام و الجمع بين التجرد الصوفي و العقلية الفلسفية جعل الغزالي يتفوق على الفيلسوف الذي لا تصوف عنده وعلى المتصوف الذي لا فلسفة لديه .

إنّ المعرفة الصوفية تتطلب من العارف ضرورة التحرر التام من الحسيات والتجرد للمعقولات والتجرد الصوفي يؤدي في نظر الغزالي الى زيادة التعمق الفكري بهدف الحصول على معارف صافية مجردة عن مخالطة الحس يروي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي عن الغزالي عندما قابله في عام 490 هـ وتحدّث معه بعد عامين من تحوله إلى التصوف"إن القلب إذا تطهر عن علاقة المحسوس وتجرد للمعقول انكشفت له الحقائق وهذه أمور لا تدرك إلا بالتجربة لها عند أربابها بالكون معهم و الصحبة لهم ويرشد غليه طريق من النظر وهو أن القلب جوهر صقيل مستعد لتجلي المعلومات فيه عند مقابلتها عريا عن الحجب كالمرآة في

ترائي المحسوسات عند زوال الحجب "لقد استطاع الغزالي عن طريق فكره الفلسفي أن يدرك التصوف إدراكا منهجيا وبعين ناقدة ولقد كان لذلك أثره في ممارستها العملية للتصوف و من ناحية أخرى ساعده التصوف في سعيه للوصول إلى فكر موضوعي مجرد عن الحس والخيال ولهذا فإنه لا يجوز إطلاقا الزعم بأن الغزالي قد أصبح انشغاله بالتصوف متصوفا رافضا للعقل الذي سما وارتفع به قبل ذلك و أنه استسلمّ لتجارب صوفية غير معقولة فالعقل قد ظل بالنسبة له ملكة الإنسان ووسيلته إلى معرفة الحقيقة هده الملكة التي حصلت على شرعيتها الكاملة عن طريق مبدئه الفلسفي كما يرى الغزالي أن مهمة العقل هي أن يقود إلى معرفة وجود الله ومعرفة وحيه ويرفض الرأي الخاطئ الذي يذهب الى أن العقل هو مجرد المنطق والجدل ويبين أن رفض العقل من جانب بعض المتصوفة يقوم على هذا الرأي الباطل فإذا وضع هؤلاء الرافضون للعقل مكان العقل المرفوض مدح الدين والشرع فغن الغزالي يسألهم:ما هو الطريق الذي يوصل إلى الاعتراف بالذين وكيف تعرف حقيقة الذين فإذا أجيب بأن حقيقة الدين تعرف عن طريق العقل الذي حكم بغدانته وذمّه فغن الديت في هذه الحالة يعد مرفوضا أيضا مثله في ذلك مثل العقل .وإذا أجيب بأن الدين لا يعرف عن طريق العقل بل يعرف بنور الإيمان وعين اليقين فإن هذا قول لايلتفت غليه وذلك لأن المقصود بالعقل هو هذا اليقين وهو هذا النور أي هو الملكة التي تميز بها الإنسان لمعرفة الحقيقة.[9]

الخـــــاتـــمـــة

هكذا منهج الغزالي في البحث من الشك إلى الإيمان تالله ومعرفة قيمة العقل الإنساني الى المطالبة بالزهد للعالم الباحث هو منهج إصلاحي هو سبيل إلى تجميع الأمّة بعد تفرق وقوتها بعد ضعف ثم هو منهج العالم في البحث يلتزم به دائما إن أراد أن يكون خادما للعلم ولخير الأمة وبالأخص منهج أولئكم الذين يعيشون في ظل رسالة الدين فأحرى بهم الشك أي أحرى بهم الابتعاد عن التقليد والتبعية و أن يستخدموا العقل كما ما جاء في كتاب الله وما جاء في سنة نبيه الكريم (ص) فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلبة جاهل والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور وقوة الغزالي ليست في موسوع معارفه وسعة اطلاعه بقدر ما هي بتأسيس منهجه ومطالبته بتطبيقه في البحث والتمييز بين الحق والباطل وهو منهج لا يقف عند عهد دون عهد بل هو منهج المؤمن العاقل والعالم البحث أينما وجد.

وإنّي أرى أن تراث أبي حامد يصلح لأن يكون دعوة للمسلمين لإعادة النظر في الأسس الفكرية التي يقوم عليها تفكيرهم في العصر الحاضر،فالمسلمون في شتّى بقاع الأرض في أشد الحاجة إلى هذا المنهج الفلسفي الغزالي إن كانوا يريدون حقا أن تكون لهم أصالتهن الفكرية وطريقهم المستقل في جهودهم نحو تطوير حياتهم ومجتمعهم وستظل دعوة الغزالي إلى التحرر من التبعية العقلية والجمود الفكري دعوة حية متجددة على مر الزمان لأنها دعوة إلى تحقيق إنسانية الإنسان، قال الغزالي "فجانب الالتفات إلى المذاهب واطلب الحق بطريق النظر لتكون صاحب مذهب ولا تكون في صورة أعمى تقلد قائدا يرشدك إلى طريق وحولك ألف مثل قائدك ينادون عليك بأنه أهلكك وأظلك عن سواء السبيل وستعلم في عاقبة أمرك ظلم قائدك فالإخلاص إلا في الاستقلال.

الهوامش:

---

[1] – فكتور سعيد باسيل / منهج البحث عن المعرفة ص 28 30 دار الكتاب اللبناني بيروت

[2] – جميل صليبا / تاريخ الفلسفة العربية ص 393 – 396

[3] – محمود زقزوق / المنهج الفلسفي ص 85 – 88

[4] – جميل صليبا / تاريخ الفلسفة العربية ص 384

[5] – محمود زقزوق / المنهج الفلسفي ص 189 – 193 دار القلم الكويت

[6] – جميل صليبا تاريخ الفلسفة العربية ص 385 – 386

[7] – محمود زقزوق / المنهج الفلسفي ص 194 – 196

[8] – عبد الأمير الأعم / الفيلسوف الغزالي ص 117 –124 دار الأندلس بيروت ط 2 1981

[9] – المرجع السابق ص 200 -202